75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد الخامس - العدد الرابع ١٣٩٧-١٩٧٦

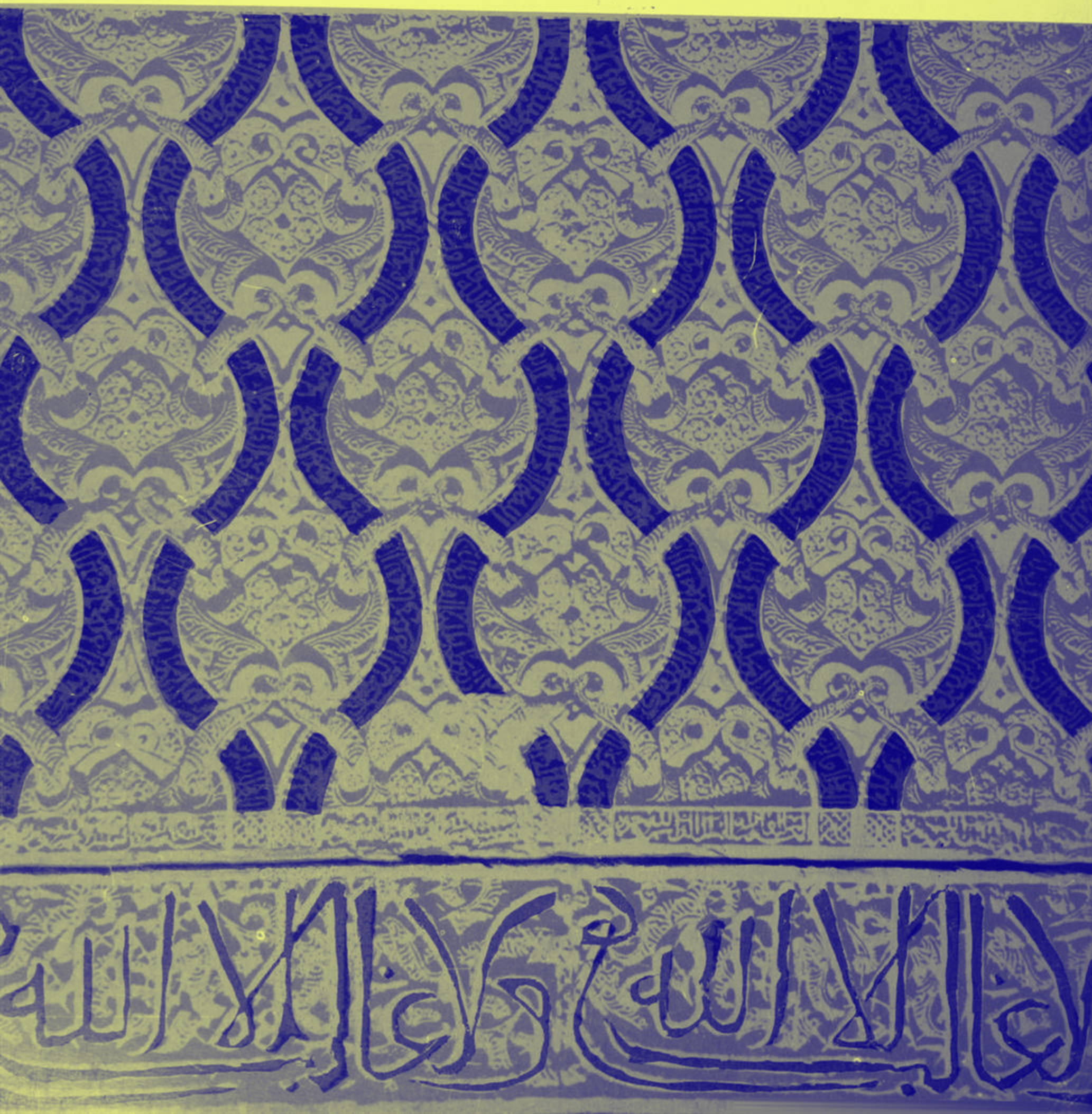

أصول الفلسفة الخلقية والسياسية في كتاب سلوك المالك لابن ابي الربيع

بقلم الدكتور

ناجي عباس صالح

لم يذكر مؤرخو الفلسفة الاسلامية القدماء ـ كابن النديم او ابن ابي اصيبعة او القفطي مثلا ـ اسم شهاب الدين احمد بن محمد بن ابي الربيع ، مؤلف كتاب سلوك المالك في تدبير الممالك . اما المؤرخون المحدثون (١) ، فقد ذكروا اسم المؤلف بعد اطلاعهم على طبع الكتاب (٢) ، حيث جاء في الصفحة الاولى وفي الصفحة الخمسين بعد المائة انه من تاليف العلامة شهاب‌الدين احمد بن محمد بن ابي الربيع .

الشيء الذي يثير الانتباه انه كتب في الصفحة الاولى من الكتاب ، ان المؤلف كتبه للخليفة المعتصم (٣) العباسي (المتوفى سنة ٢٢٧هـ/٨٤٢م) ، فاختلف المؤرخون المحدثون عن زمن وضع الكتاب فقد ارجع جرجي زيدان (٤) تاريخ كتابة الكتاب الى عهد الخليفة العباسي المستعصم (المتوفى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، والاسباب التي حدت به الى هذا الراي ، ان اسلوب الكتاب ونضجه الفلسفي يبعد الاحتمال ان مؤلفه عاش قبل الكندي والفارابي . كما ان الكتاب ـ برايه ـ كامل الوجوه في تخطيطه المشجر ، اضافة الى ان اسم المؤلف (شهاب الدين) ولا يوجد مثل هذا الاسم في زمن المعتصم كما تشهد بذلك كتب التاريخ التي ارخت تلك الفترة . وان الاسمين (معتصم ومستعصم) متشابهان في الكتابة ، ولابد ان الاسم المذكور هو (المستعصم) ، وقد اخطأ الناسخ فجعله (المعتصم) اما شيرواني (٥) فيرد على جرجي زيدان بحجة ان الفلسفة اليونانية قد انتقلت واثرت في الفكر الاسلامي منذ زمن الرشيد والمامون ، بالاضافة الى ان عصر المستعصم كان وقت استعداد وتاهب للحرب ضد هولاكو ، ولهذا فهو يرى ان الكتاب قد كتب في زمن المعتصم . اما بروكلمان فقد ذكر في مكان من كتابه (٦) ، ان الكتاب كتب للخليفة المعتصم . ثم يتراجع بعد ذلك ليقول في مكان آخر (٧) ان الكتاب كتب للخليفة المستعصم .

يخيل لي ان وجهة نظر جرجي زيدان اقرب للحقيقة . فبروكلمان ناقض نفسه ولم يثبت على قرار علمي معين . اما حجة شيرواني ان البلاد كانت في حالة تاهب لحرب هولاكو، فاظن ان ذلك لا يمنع من بزوغ كاتب بارع في الفلسفة او في اي فرع آخر من فروع المعرفة(*) . اما ان الفلسفة اليونانية قد انتقلت

(١) انظر :
حاجي خليفة : كشف الظنون ، طبعة القاهرة ١٢٧٤هـ جـ١ ص٧٤٥ .
طبعة استانبول ١٩٤٣م جـ٢ ص١٠٠٠ .
جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية ، القاهرة ١٩١١ جـ٢ ص٢١٤–٢١٥ .
الزركلي : الاعلام ، القاهرة جـ١ ص١٩٥ .
عمر كحالة : معجم المؤلفين ، دمشق ٩٥٧–٩٦١ جـ٢ ص١٠١
Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literatur, (2nd. ed. and Eupplements), Leiden 1937—1949, GI, 209, SI. 372.
H.K. Sherwani, A Muslim Political Thinker of the Ninth Century. A.D. Ibn Abi al-Rabi, (Islamic Culture), Hyderabad Deccan, 1941, pp. 143—156.
D.M. Dunlop, The Fusul al-Madani of al-Farabi Cambridge 1961 (introduction P. 6).
T.A. Sarkis, Bibliographie Arabe, Cairo; 929, p. 30.
N.A. al-Tikriti, Yahya Ibn Adi, A Critical Edition and Study of his Tahdhib al-Akhlaq, Ph. D. Thesis, Cambridge, 1970, p. 274—275.

(٢) طبع الكتاب في القاهرة سنة ١٢٨٦هـ على الحجر في ١٥٢ صفحة من القطع الكبير .

(٣) يخيل الي ان الصفحة الاولى من اضافة الناسخ ، الذي يشير بدوره ان المؤلف ذكره في الفصل الاول . انظر ص ١٢٤١ .

(٤) تاريخ آداب اللغة العربية جـ٢ ص٢١٤ .

(٥) Islamic Culture, p. 46—148.

(٦) Brockelmann, G. I. 209.

(٧) Brockelmann, SI, 372.

(*) لعل ذكر مثلين علميين يدحض حجة شيرواني هذه ، اذا

زمن الرشيد والمأمون فهذا مما لا شك فيه فقد كان عصر ترجمة ، اما اثرها فقد جاء بعد ذلك كما نقرأ في مؤلفات ابي بكر الرازي (المتوفى سنة ٣١٢هـ/٩٢٥م) والفارابي (المتوفى سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م) وابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٦م) ، وغيرهم . كما ان اخطاء النساخ شائعة ، فلا يستبعد ان الناسخ قد اخطأ فكتب المعتصم بدلا من المستعصم . ومن تحليل للكتاب ومقارنته بكتاب آخر هو كتاب تهذيب الاخلاق لمؤلفه يحيى بن عدي (المتوفى سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م) سنرى كيف ان ابن ابي الربيع قد تأثر باراء من سبقه من فلاسفة الاسلام وكيف ان فقرات وافكارا كثيرة من تهذيب الاخلاق نقلها ابن ابي الربيع وكتبها بطريقة الجداول والتشجير .

يقسم المؤلف الكتاب الى اربعة فصول (٨) : الفصل الاول كمقدمة ، والفصل الثاني في احكام الاخلاق واقسامها ، والفصل الثالث في اصناف السيرة العقلية وانتظامها ، والفصل الرابع في اقسام السياسات واحكامها .

يبدا الكتاب بالحمد لله الذي خلق الانسان في احسن تقويم ورفعه على ممن خلق بالتكريم وفضله وامره بمكارم الاخلاق وتزكية النفس (٩) . يذكر بعد هذا فضل الاسلام والحث على مكارم الاخلاق ، ويذكر فضل الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم وسيرهم الشريفة المتمثلة بالاخلاق (١٠) .

نلاحظ الروح الاسلامية واضحة جدا في اسلوب المؤلف ، فبعد ان حمد الله تعالى في اول الكتاب ، اضاف بان الله امر الانسان بمكارم تزكية لنفسه التي خلقها فسواها حيث قال : قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها (١١) . فهو يستشهد بالآيات القرآنية ويمزجها باسلوبه ، بالاضافة الى ان الفكر اليوناني واضح في ثنايا الكتاب . ولعلني لا اتي بجديد اذا ما ذكرت ان الفلاسفة المسلمين بصورة عامة يكون انتاجهم حصيلة دراستهم للقرآن الكريم وتاثرهم بالفلسفة اليونانية اضافة الى ابداعهم الذاتي .

يذكر ابن ابي الربيع ان سببين بعثاه على تاليف هذا الكتاب :

الاول انه وقف على كتاب مشجر في حفظ صحة البدن مختصر ، ذكر فيه ان النفس اشرف من البدن فراى ان اصلاح اخلاق النفس وتزكيتها بالعلم (١٢) ، والسبب الثاني انه اطاع من اشار اليه بذلك من ذوي المقام الرفيع (١٣) .

يشير المؤلف في مقدمة الكتاب الى شيئين مهمين : الاول انه يسمي دراسة السلوك البشري بعلم الاخلاق(١٤) ، والثاني انه يذكر صراحة انه تامل ما وجد من الكتب في هذا العلم تاملا شافيا وانتزع منها ما كان قابلا للتشجير والتقسيم (١٥) . فالمؤلف الذي هنا يعترف بصراحة انه (انتزع) من الكتب فقرات وشجرها ، وهذا ما سنلاحظه من الفقرات الكثيرة التي اخذها عن مؤلفين سابقين ورتبها وشجرها . ويقول انه جمع في كتابه بين كلام الحكماء المتقدمين والعلماء المتاخرين (١٦) . واظنه يقصد بالحكماء فلاسفة اليونان ، وبالعلماء فلاسفة الاسلام .

يبدا الفصل الاول بتذكير الانسان ان يعلم ويعتقد بان لهذا العالم صانعا (١٧) ، وان افضل جزء في العالم من هو ذو نفس ، وان افضل ذوي النفس الذي له الاختيار والارادة والحركة عن روية ، وافضل ذوي الارادة والحركة عن روية ، الذي له النظر البديع في العواقب ، وهو الانسان الفاضل (١٨) . وان هناك تفاضلا بين الناس في عقولهم وقوى نفوسهم ، حيث ان الواحد منهم يفوق بالفن الواحد جميع ذوي جنسه ويعجز الباقون عنه ، فاقتضت حكمة الله تعالى ان يجعل فيهم من افضلهم واسطة بينه وبينهم يلقي اليه ما ينتظم به امر معاشهم وتدبيره على ابلاغهم حتى يقوم بتبليغ ما يلقى اليه ويقدر تلك القدرة وذلك الالهام على ايضاح السبيل الداعية الى الحق(١٩) . ولذا فعلى الانسان ان يهتدي بنور الله وهديه الذي اهتدى بمعرفته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه ان يقدم على سياسة احواله بقلب قوي ونية صادقة وصدر واسع ، ويثق بان ما ياتيه ، وان قل ، يجدي عليه نفعا كبيرا(٢٠) . وان الغرض

ما علمنا ان نصيرالدين الطوسي الفيلسوف والعالم المشهور، وان ابن الطقطقي مؤلف كتاب الفخري ، قد عاشا في نفس الفترة التي دخل فيها هولاكو بغداد .

(٨) سلوك المالك في تدبير الممالك ص٥ .
(٩) سلوك المالك ص٢ .
(١٠) سلوك المالك ص٣ .
(١١) سلوك المالك ص٢ .
(١٢) سلوك المالك ص٣ « لم يذكر ابن ابي الربيع ، مؤلف هذا الكتاب ولا عنوانه بالضبط ، ومما نجدر الاشارة اليه هنا ان اغلب الكتب الاسلامية التي تناولت فلسفة الاخلاق تشير الى ان النفس اشرف من البدن ، وكامثلة على ذلك انظر : ـ الكندي : رسائل الكندي الفلسفية ، تحقيق ابو ريدة ، القاهرة ، مطبعة الاعتماد جـ١ ص٢٧٧

الرازي : رسائل فلسفية تحقيق بول كراوس ، قاهرة ١٩٣٩ جـ١ ص١٥ـ٩٦ .

الفارابي : الثمرة المرضية تحقيق وتربيص ، ليدن ١٨٩٠ ص٧٥ .

ابن سينا : احوال النفس ، تحقيق احمد فؤاد الاهواني، القاهرة ١٩٥٢ ص١٨٢ .

وبلا شك ان فكرة النفس اشرف من البدن هي فكرة يونانية ، انظر مثلا :

هيراقليطس : (ترجمة وتقديم الدكاترة علي سامي النشار وابي ريان وعبده الاحجي) : القاهرة ١٩٦٦ ص٧٦ـ٨٨

Plate, Phedo, (English Translation) by B. Gewett, New York, 1937, Vol. I. 79—80.

Aristotle, De Anima, (English Translation) by G. Smith, Oxford 1931, II.i. 412 ab.

(١٣) سلوك المالك ص٣ « المؤسف ان ابن ابي الربيع لم يذكر اسم هذا الذي اوامره مطاعة ـ حسب تعبيره ـ والا لسهل علينا معرفة زمن كتاب الكتاب » .
(١٤) سلوك المالك ص٤ .
(١٥) سلوك المالك ص٤ .
(١٦) سلوك المالك ص ٥
(١٧) سلوك المالك ص٥ .
(١٨) سلوك المالك ص٧ .
(١٩) سلوك المالك ص٧ .
(٢٠) سلوك المالك ص٨ .

من هذا الكتاب ، الابانة عن الكمال الانساني الحاصل باستعمال الفضائل والمأمور بها واجتناب الرذائل المنهي عنها(٢١) .

نلاحظ ان شهاب‌الدين يستعمل كلمة (صانع) لهذا العالم ولم يستعمل كلمة (خالق) ، والغالب انه تاثر بهذه الفكرة بافلاطون في كتابه تيمارس الذي يستعمل كلمة (صانع) لهذا العالم(٢٢) . كما نلاحظ ان الانسان الكامل عند ابن ابي الربيع ، هو الانسان الفاضل الذي يسوس نفسه ويصلحها بطاعة اوامر الله ورسوله وعمل الفضائل واجتناب الرذائل . فنر ىكيف يمزج بين اوامر الدين وتوجيه الفلسفة ومما تجدر الاشارة اليه ان الانسان الكامل عنده يختلف عن الانسان الكامل عند متصوفة الاسلام ، فابن عربي ـ مثلا ـ يرى ان الانسان الكامل هو النبي والولي فقط(٢٣) . بينما الانسان عند ابن ابي الربيع ، يحصل على كماله عند طاعته للشريعة ، وعند استعماله الفضائل واجتنابه الرذائل .

يختتم ابن ابي الربيع الفصل الاول بالنصيحة بتسويس الناس بالدين القيم والسنة العادلة(٢٤) ، وتوجيه رئيس واحد تكون له اكمل المراتب الانسانية ، ويعدد له ثلاثة عشر فضيلة يجب ان تتوفر فيه : الاولى ان يكون له قدرة على جودة التخيل والثانية ان يكون صحيح الاعضاء ، والثالثة ان يكون جيد الفهم ، الرابعة ان يكون جيد الحفظ ، الخامسة ان يكون جيد الفطنة ذكيا ، السادسة ان يكون حسن العبارة ، السابعة ان يكون محبا للعلم ، الثامنة ان يكون محبا للصدق ، التاسعة الا يكون شرها على الشهوات ، العاشرة ان يكون كبير النفس ، الحادية عشرة ان يكون محبا للعدل ، الثانية عشرة ان يكون قوي العزيمة ، الثالثة عشرة ان يهون‌عنده الدينار والدرهم وسائر الاعراض الدنياوية الفانية(٢٥) . وان من تفرد بهذه الصفات انتشرت محاسنه في اطراف مهاد الارض . ولم ينس ابن ابي الربيع ان يضيف بان الذي ملك هذه الخصال في زمنه هو خليفة الله في العباد والسالك سبيل الرشاد المعتصم‌بالله(٢٦)، حيث اجتمعت فيه الخصال الموجهة للخلافة والامامة فنشر العدل وتتبع المعروف فانتشر العدل وزال الظلم .

يمزج ابن ابي الربيع الاخلاق بالسياسة ، كمزجه للدين بالفلسفة ، فبعد ان ينصح باتباع الفضائل واجتناب الرذائل واتباع السنة العادلة ، نراه يذكر صفات رئيس المدينة . لا شك ان فلاسفة الاسلام اطلعوا على الفكر الاغريقي فوجدوا ان‌اليونان درسوا السياسة كجزء من الاخلاق ، وكذلك فعل المسلمون ، ولم يفصلوا السياسة عن الاخلاق . والواقع ان دراسة السياسة لم تنفصل كدراسة مستقلة عن الاخلاق الا بعد ، فمنذ ذلك الوقت حتى الان تدرس السياسة كعلم مستقل عن علم الاخلاق . كذلك نرى ان الصفات التي اشترطها ابن ابي الربيع للرئيس لا تختلف في عددها ولا في محتواها عن الصفات التي أوجب توفرها افلاطون في جمهوريته(٢٧) للحاكم الفيلسوف ، والفارابي(٢٨) في ذكره خصال رئيس المدينة الفاضلة .

يبدا الفصل الثاني بتذكير الانسان انه من دون سائر الحيوان ذو فكر وتمييز(٢٩) ، ولهذا يجب ان يروض نفسه على مكارم الاخلاق ، ويتحلى بالصفات الحسنة ، ويجتنب الصفات القبيحة . وان على الانسان ان ينمي الاخلاق الجميلة ، اما اذا وجد عنده خلقا قبيحا فعليه ان يعترف به ويقف ضده ، كالطبيب الذي متى صادف البدن ازيد حرارة او انقص رده الى التوسط من الحرارة(٣٠) . حتى نعود انفسنا على الوسط لان الخلق براي ابن ابي الربيع لا يخلو من ثلاثة احوال : الوسط والمائل عنه والمائل اليه(٣١) . ولما كان الغرض هو السعادة الخلقية فعلينا ان نوازن افعالنا ، فكلما وجدنا انفسنا مالت الى جانب عوداناها الجانب الآخر ، ولا نزال نفعل ذلك حتى نبلغ الوسط او نقاربه(٣٢) .

قبل ان نترك هذه الفقرة اود ان اشير الى ان ابن ابي الربيع بدا الفصل الثاني من كتابه بفقرة تشابه ما بدا به يحيى بن عدي كتابه « تهذيب الاخلاق(٣٣) » وعند قراءتنا للفقرتين التاليتين من كلا الكتابين نرى كيف ان ابن ابي الربيع قد اخذ عن تهذيب الاخلاق ، ولا اريد ان اكرر ما قلته في صفحة سابقة ان ابن ابي الربيع قد اعترف بانه (انتزع) فقرات من كتب المتقدمين :

يحيى بن عـــدي

بدا كتابه قائلا(٣٤) :

اعلم ان الانسان من بين سائر الحيوان ذو فكر وتمييز وهو ابدا يحب من الامور افضلها ومن المراتب اشرفها ومن

---

(٢١) سلوك المالك ص٩ .

(٢٢) Plato, Tomacus (English Translation) by H. Lee, Penguin, 1965, 28.

(٢٣) ابن عربي : فصوص الحكم ، القاهرة ١٩٤٦ ص٢٥٢ .

(٢٤) سلوك المالك ص١٠ .

(٢٥) سلوك المالك ص١١ « اختصرت كل فضيلة بكلمتين دون اضاعة المعنى بدلا من سطر كامل عرفها فيه المؤلف وكتبها على شكل جدول » .

(٢٦) سلوك المالك ص١٣ « الذي نلاحظ من الجملة اعلاه ان اغلب الكتاب يذكرون الخليفة او السلطان القائم بكل صفات العدل والاحسان والكرم والاخلاق النبيلة » .

(٢٧) Plato, The Republic, (English Translation) by B. Gewet, Oxford, 1888, V1, 485.

(٢٨) الفارابي : كتاب اهل المدينة الفاضلة ، تحقيق البير نصري نادر ، بيروت ١٩٥٩ ص١٠٥ـ١٠٦ .

(٢٩) سلوك المالك ص١٥ .

(٣٠) سلوك المالك ص١٩ .

(٣١) سلوك المالك ص٢٠ .

(٣٢) سلوك المالك ص٢١ .

(٣٣) انظر رسالتنا للدكتوراه الموسومة :
N.A. al-Tikriti, Yahya Ibn Adi, A Critical Edition and Study of his Tahdhib Al-Akhlaq, Ph. D. Thesis, Cambridge, 1970.
« الذي اود ان اشير اليه هنا ان تهذيب الاخلاق ليحيى بن عدي قد طبع عدة طبعات ، ولكن التحقيق العلمي الوحيد للكتاب ، هو الذي قمت به في جامعة كمبرج حيث حققته من سبع مخطوطات بالاضافة الى مقارنة بكل النسخ المطبوعة ، والاشارة الى الاخطاء التي وقع فيها طابعو الكتاب . الشيء الثاني الذي اود ذكره انني هنا ساعتمد على كتاب تهذيب الاخلاق المحقق في رسالتي كمصدر فقط عندما اشير الى رقم الصفحات » .

(٣٤) المصدر السابق ٤٧ب‌ـ٤٨ أ .

المقتنيات انفسها اذا لم يعدل عن التمييز في اختياره ولم يغلبه هواه في اتباع اغراضه واول ما اختاره الانسان لنفسه ولم يقف دون بلوغ غايته ولم يرض بالتقصير عن نهايته تمامه وكماله ، ومن تمام الانسان وكماله ان يكون مراتاضا بمكارم الاخلاق ومحاسنها ومتنزها عن مساوئها ومقابحها آخذا في جميع احواله بقوانين الفضائل عادلا في كل افعاله عن طريق الرذائل واذا كان ذلك كذلك كان واجبا على الانسان ان يجعل قصده اكتساب كل شيمة سليمة من المعائب وبصرف همته الى اقتناء كل خلق كريم خالص من الشوائب وان يبذل جهده في اجتناب كل خصلة مكروهة رديئة ويستفرغ وسعه في اطراح كل خلة مذمومة دنيئة حتى يحوز الكمال بتهذيب اخلاقه ويكتسي حلل الجمال بدماثة شمائله .

ابن ابي الربيع

بدأ الفصل الثاني من كتابه قائلا(٣٥) :

قد ثبت بالبرهان الصادق ان الانسان من بين سائر الحيوان ذو فكر وتمييز فهو ابدا يختار من الامور افضلها ومن المراتب اشرفها ومن المقتنيات انفسها اذا لم يعدل عن التمييز في اختياره ولم يغلبه هواه في اتباع اغراضه واولى ما اختاره الانسان لنفسه ولم يقف دون بلوغ غايته ولم يرض بالتقصير عن نهاية تمامه وكماله اذ هو من تمام الانسان وكماله ان يكون مرتاضا بمكارم الاخلاق ومحاسنها متنزها عن مساويها ومقابحها آخذا في جميع احواله بقوانين الفضائل ، عادلا في افعاله عن طريق الرذائل ، واذا كان ذلك كذلك فقد وجب عليه ان يجعل قصده اكتساب كل شيمة سليمة من المعائب ويصرف همته في اقتناء (خيم) كريم خالص من الشوائب وان يبذل جهده في اجتناب كل خصلة مكروهة ويستفرغ وسعه في اطراح كل خلة مذمومة حتى يحوز الكمال بتهذيب خلائقه ويكتسي حلل الجمال بدماثة شمائله .

اما فكرة الوسط التي نصح بها ابن ابي الربيع ، فقد عالجها كثير من مفكري الاسلام(٣٦) . وبلا شك ان الفكرة يونانية ، فافلاطون(٣٧) قال بان العدالة وسط بين طرفين ، وارسطو(٣٧ب) قرر ان الفضيلة وسط بين رذيلتين فالشجاعة عنده ـ مثلا ـ فضيلة بين رذيلتين هما الجبن والتهور .

يعرف ابن ابي الربيع الخلق فيقول(٣٨) : « ان الخلق حال للنفس داعية لها الى افعالها من فكرة وروية » . ثم يقول بعدها ان الخلق اما ان يكون طبيعيا من اصل الخلقة او مستفادا بالعادة . ثم ينصح بعدها بان يتبع الانسان قواه العقلية ويضعف من قواه البهيمية حتى تصلح نفسه . ثم يقول ان الفلاسفة(٣٩) قد اجمعت على ان جميع اجناس الفضائل التي لا نحتاج في اقتناء كمال النفس الى غيرها هي اربعة : الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة .

من الجدير بالملاحظة ان تعريفه للخلق قد سبقه اليه فلاسفة آخرون فابن مسكويه يقول(٤٠) :

« الخلق حال للنفس داعية لها الى افعالها من غير فكر ولا روية » . ويحيى بن عدي(٤١) :

«الخلق حال للنفس بها يفعل الانسان بلا روية ولا اختيار»

ويبدو لي ان تعريف الخلق عندهم جميعا قد اخذ عن جالينوس الذي حدّه(٤٢) :

« الخلق حال للنفس داعية الانسان الى ان يفعل افعال النفس بلا روية ولا اختبار » .

والفكرة بلا شك ارسطاطاليسية مبثوثة في كتاب الاخلاق النيقوماخية . اما الفضائل الاربع التي ذكرها ابن ابي الربيع مشيرا الى الفلاسفة ، فان اصلها الحكيم افلاطون(٤٣) الذي قسم النفس الى ثلاث قوى : القوة الناطقة وفضيلتها الحكمة والقوة الغضبية وفضيلتها الشجاعة والقوة الشهوانية وفضيلتها العفة وان فضيلة العدالة هي ان توازن بين القوى الثلاث المشار اليها حيث اخذها الفلاسفة من بعده لا سيما المسلمون واستعملوها في كتاباتهم وبنوا على اساسها نظرياتهم في الفلسفة الخلقية(٤٤) .

---

(٣٥) سلوك المالك ص١٥ـ١٦ .

(*) الكلمة خيم لا معنى لها ، ولا شك ان المراد بها (خلق) ، وربما حدث هذا خطأ ، وقع فيه الناسخ .

(٣٦) انظر مثلا :
- الفارابي : رسالة في السياسة ، تحقيق لويس شيخو ، بيروت ١٩١١ ص٣٠ .
- ابن سينا : كتاب في السياسة ، تحقيق لويس معلوف ، بيروت ١٩١١ ص١٠ .
- ابن حزم : فلسفة الاخلاق ، القاهرة ـ بدون تاريخ ـ ص٥٨ .
- الغزالي : احياء علوم الدين ، القاهرة ١٢٨٢هـ جـ٣ ص٤٧ .
- مسكويه : تهذيب الاخلاق ، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٦٦ ص٢
Nasir al-Dim Tusi, The Nasirian Ethics. English Translation, by G.M. Wickens, London, 1964. p. 113.
J. Al-Dawwani, Akhlak-i-Jalaly, English Translation, by W.F. Thomson, London, 1839, p. 171.
« الصفحات المؤشرة اعلاه كامثلة فقط اذ ان الوسط فضيلة عندهم بين رذيلتين مبثوثة في اغلب كتبهم » .

(٣٧) Plato, The Republic. II. 359.

(٣٧ب) Aristotle, Ethica Micomachea. (English Translation) by D. Ress. Oxford, 1925, II. 7—9.

(٣٨) سلوك المالك ص٢٣ .

(٣٩) سلوك المالك ص٢٥ـ٢٦

(٤٠) تهذيب الاخلاق ص٣١ .

(٤١) تهذيب الاخلاق ٥٠ !

(٤٢) كتاب الاخلاق تحقيق كراوس (مجلة كلية الاداب ـ جامعة القاهرة) مايس ١٩٣٧ ص٢٥ .

(٤٣) Plato, The Republic, IV. 435.

(٤٤) اعتقد لا حاجة لذكر الامثلة فكل من يتصفح كتابا في فلسفة الاخلاق لفيلسوف مسلم يستكشف ان نظريته الاخلاقية بنيت على توازن قوى النفس الافلاطونية . هذا من جهة ومن ناحية اخرى الاعتدال في كل شيء والميل نحو الوسط الذي هو فضيلة . وقد اشرت في الصفحات السابقة الى ان اصل فكرة الوسط هي ارسطاليسية » .

ويفصل ابن ابي الربيع قوى النفس(٤٥) ويعرفها فالقوة الفكرية عنده هي العاقلة ومسكنها الدماغ ، وبها يكون الفكر ويختص بها الانسان ، والقوة الغضبية وهي الحيوانية السبعية ويشارك الانسان بها الحيوان ومن قواها حب الغلبة والرياسة ، والقوة الشهوية وهي المغذية النباتية ومسكنها الكبد ويشارك بها الحيوان والنبات وبها يبقى التناسل وبها يطلب الموافق من الاغذية . ويضع ابن ابي الربيع الجداول المشجرة في تقسيم الفضائل والرذائل وكل همه من ذلك التوسط في الامور وعدم الافراط والتفريط(٤٦) . الا ان الذي يثير الملاحظة ان بعض تعاريف ابن ابي الربيع مشابهة تماما لتعاريف يحيى بن عدي لفظا ومعنى . فمثلا يعرف ابن ابي الربيع(٤٧) فضيلة الصدق : « الصدق هو الاخبار عن الشيء بما هو عليه » ، ويحيى بن عدي(٤٨) يعرّفه : « الصدق وهو الاخبار عن الشيء على ما هو به » .

والكذب عند ابن ابي الربيع(٤٩) : « هو الاخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه وهو مذموم » . ويحيى بن عدي(٥٠) يقول : « وهو الاخبار عن الشيء بخلاف ما هو به وهذا الخلق مكروه » . ولا اريد ان اكثر من وضع النصوص فهناك تشابه كبير في كثير من تعريف بعض الفضائل والرذائل في كلا الكتابين تشابها يكاد يكون متطابقا روحا ومعنى(٥١) . ويشير ابن ابي الربيع(٥٢) الى ان الحكماء قد اختلفوا في فضائل الاخلاق هل تراد لذواتها او للسعادة الحادثة عنها على نوعين فذهب بعضهم الى ان المراد بالفضائل ذواتها لا لكونها المكتسبة للسعادة وذهب آخرون الى ان المراد بها السعادة الحادثة عنها لانها الغاية المقصودة بها . الشيء المؤسف ان ابن ابي الربيع لم يعطنا رأيه هو في الموضوع.

عندما يتكلم ابن ابي الربيع(٥٣) عن السعادة يذكر صراحة ان افلاطون يرى ان السعادة خاصة في النفس دون البدن ، اما ارسطو فيقول عنه انه شارك فيها بين النفس والبدن . وتنقسم الخيرات(٥٤) عنده الى قسمين : خير محمود عند كل احد كالعدل والصدق والكرم فان ذلك محبوب محمود عند كل احد ، وخير ليس بمؤثر عند كل احد كالشجاعة والغنى وما اشبههما فانه ليس محبوبا مختارا عند الجميع.ويقسم الخيرات ايضا الى ثلاثة انواع(٥٥) : احدها في النفس كجودة الفضائل والثاني في البدن كحسن البدن وصحة اعضائه وسلامته من الآفات والثالث خارج عنهما كالمال والسلطان والاصدقاء . ويقرر بعد ذلك ان الانسان مطبوع على اخلاق قل ما حمد جميعها او ذم سائرها وانما الغالب بعضها محمود وبعضها مذموم . ولذا عنده ان الانسان السعيد من غلبت فضائله على رذائله ،

(٤٥) سلوك المالك ص٢٩ .
(٤٦) انظر سلوك المالك الصفحات ٣٠-٤٦ .
(٤٧) سلوك المالك ص٣٤ .
(٤٨) تهذيب الاخلاق ٦٤ب .
(٤٩) سلوك المالك ص٣٥ .
(٥٠) تهذيب الاخلاق ٧١ أ .
(٥١) « يمكن لمن يريد المقارنة بين نصوص الكتابين ان ينظر :
سلوك المالك ص٣٠-٤٥ .
تهذيب الاخلاق ٦٠ أ - ٧٢ب .
(٥٢) سلوك المالك ص٤٦ .
(٥٣) سلوك المالك ص٥٠ .
(٥٤) سلوك المالك ص٥١ .
(٥٥) سلوك المالك ص٥٢ .

ولذا يحث الانسان على التخلق بالاخلاق المحمودة واستعمالها واجتناب المذمومة واهمالها وينصح بالمدارسة على كتب الاخلاق والسياسات والعمل بها وان يجالس الزهاد وذوى الاجتهاد ويجتنب مجالسة السفهاء . وهنا لابد من الاشارة ان ابن الربيع عمل جدولا مشجرا بتمييز قوى النفس الثلاث وترويضها حيث يشابه ما كتبه يحيى بن عدي كثيرا . فهو يقول مثلا ناصحا(٥٦) : « بمداومة الاطلاع على كتب الاخلاق والسياسات والعمل بها » وابن عدي ينصح(٥٧) : « قراءة كتب الاخلاق وتصفح كتب السير والسياسات » . ويقول ابن ابي الربيع بتمييز القوة الناطقة(٥٨) : «بتدقيق النظر في العلوم العقلية والبحث عنها»، وفي نفس الموضوع يقول يحيى بن عدي(٥٩) : « فانه اذا نظر في العلوم العقلية ودقق فيها .. » ويقول ابن ابي الربيع في ترويض النفس الغضبية(٦٠) : « بان يذكر من يؤذيه ان لو كان هو المؤذي هل كان يختار ذلك او ينفر منه ؟ » ويقول يحيى في نفس المشكلة(٦١) : « ان يذكر اوقات غضبه على من يؤذيه او يجني عليه انه لو كان هو الجاني ما الذي كان يستحق ان يقابل على جنايته ؟ »

اما الفصل الثالث من الكتاب فقد خصه في اصناف السيرة العقلية الواجب على الانسان اتباعها والعمل بها . ونلاحظ انه كرر كثيرا من نصائحه التي قالها في الفصلين السابقين - في اتباع طريق الفضيلة التي يحث عليها العقل . كما انه يعالج في هذا الفصل كثيرا من شؤون الهندسة والرياضيات والبلاغة وكل هذه الاخيرة خارجة عن نطاق بحثنا اذ ان هذه المقالة تبحث - كما هو مشار سابقا - في افكار ابن ابي الربيع الاخلاقية والسياسية. كما ان الملاحظ ان هذا الفصل كتب اغلبه على شكل جداول مشجرة .

يبدا الفصل الثالث بالاتجاه الى الله تعالى داعيا منه التوفيق في الاعمال مشيرا بعدها الى ان بعض العلماء ذكر ان المخلوقات باسرها على اربعة اقسام(٦٢) : القسم الاول الذي له عقل وحكمة وليس له طبيعة وشهوة وهم الملائكة . والقسم الثاني الذي له طبيعة وشهوة وليس له عقل ولا حكمة وهو الحيوان غير الانسان . القسم الثالث الذي ليس له عقل ولا حكمة ولا طبيعة ولا شهوة وهو الجماد والنبات . اما الرابع فهو الذي يكون له عقل وحكمة وطبيعة وشهوة وذلك هو الانسان . فيهتم بالانسان لانه مخصوص بالعقل حيث عن طريق العقل اكتسب العلم(٦٣) .

اود ان اذكر هنا بعد مقدمة الفصل الثالث من كتاب سلوك المالك في اتباع طريق العقل الذي فضل به الانسان على الحيوان . ان الفلاسفة مد وجدوا يميزون الانسان على الحيوان بالعقل الا ان فيلسوفا اسلاميا قد عالج المشكلة بنفس الاسلوب في كتبه المتوفرة لدينا الا وهو ابو بكر الرازي فقد اشار في بداية كتابه (الطب الروحاني) (٦٤) : ان البارىء عز اسمه اعطانا العقل وحبانا به لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة .

(٥٦) سلوك المالك ص٥٥ . (٥٩) تهذيب الاخلاق ٨٥ أ .
(٥٧) تهذيب الاخلاق ٩٠ أ . (٦٠) سلوك المالك ص٥٥ .
(٥٨) سلوك المالك ص٥٥ . (٦١) تهذيب الاخلاق ٨٣ أ .
(٦٢) سلوك المالك ص٥٨ .
(٦٣) سلوك المالك ص٥٩-٦٠ .
(٦٤) الرازي : رسائل فلسفية ، تحقيق ب . كراوس القاهرة ص١٧ .

كما انه يقول : « فبالعقل فضلنا على الحيوان » (٦٥) ورغم عدم وجود تشابه في الاسلوب ـ الحافر على الحافر ـ بين كتابة ابن ابي الربيع وابي بكر الرازي ، ولكن مع هذا فابو بكر الرازي يطنب في تمجيد العقل والسيرة العقلية او السيرة الفلسفية كما يسميها في كتابه (الطب الروحاني) (٦٦) وكتابه (السيرة الفلسفية) (٦٧) .

وان سياسة الانسان لنفسه عند ابن الربيع(٦٨) هي ان ياتي بالاعمال الصالحة ، فمن ناحية سيرته مع اهله وماله وولده وسيرته مع بني جنسه من بني الانسان . فسيرته مع نفسه بان يجتهد في بلوغ الكمال . اما سيرته مع بدنه فهو ان يلزم الاعتدال في الطعام والشراب وباقي الشهوات(٦٩) . فاما مع حاله فانه بالمال يتمكن التوصل الى مآربه واما زوجته فهي ربة المنزل وشريكته فيه . واما الولد فهم الخلف وهم قوام الانس اما تدبيره للامور فهو اجراء اموره على الصواب(٧٠) . ويقرر ابن ابي الربيع(٧١) في لفتة بارعة هو اننا لا يمكن ان نجد انسانا كاملا من جميع الجهات ، فكل انسان اذا لاحظ الاخرين وجد نفسه في حالة يشركه فيها طائفة منهم . وكذلك وجد طائفة هم اعلى بجهة او جهات ووحد دونها طائفة هم اوضع منه بجهة او جهات ، ولهذا اذا تامل الانسان اخلاق الاخرين توجب عليه ان ينتفع بالسيرة الصالحة لمن هو اعلى منه فيرفع الى مرتبتهم، واما مع الاكفاء فليفضل عليهم واما مع الاوضعين قليلا فلا ينحط الى رتبهم(٧٢) . فيجب على الانسان في ماله ان يعرف ابواب الجميل ولا يقصد الانفاق على شهواته ولذاته وينصح بالتوسط بين رذيلتين فهو يقول على الرجل ان يكون انفاقه كرما لا تبذيرا ولا اسرافا(٧٣) . اما المراة فهي مكملة للرجل لا سيما وان الرجل يقضي اكثر اوقاته خارج البيت فهي التي تدير شؤون البيت بالاضافة الى الانجاب الطبيعي من لقاء الرجل بالمراة . ويجب على الرجل ان يقصد من المراة خلقها ومساعدته في تدبير منزله لا ان يقصدها لمالها او لجمالها(٧٤) .

واما الولد ـ فراى ابن ابي الربيع ـ فينبغي ان يؤخذ بالادب من صغره لان الصغير اسلس قيادا واسرع مواتاة ولاجل ان يتعود على الاخلاق الجميلة والافعال المحمودة يجب ان يتعلم منذ الصغر العادات المرضية والنظر في امور الشريعة وان يربى منذ الصغر على حب الفضائل واجتناب الرذائل(٧٥) . ويوصي الرجل الذي يملك العبيد بعبيده خيرا وان يعاملهم المعاملة الحسنة(٧٦) . اما مبرة الانسان مع اهل نوعه ـ حسب تعبير ابن ابي الربيع(٧٧) ـ فيقسمها الى ثلاثة انواع : اولا سيرته مع من فوقه الذين يحددهم بالاباء والمعلمين والملوك وبصورة عامة ينبغي عليه ان ينظر اليهم نظرة اكبار واجلال . وثانيا سيرته مع اكفائه وهم الاخوة والاصدقاء والاعداء والمتوسطون ، فاما الاخوة فعليه ان يختار منهم الافضل ومع ذلك يجب ان ينظر كلا منهم بما يستحقه وعلى قدر عقله فيحترم الكبير ويوقر الصغير ولا يغفل عن خدمتهم وقضاء حقوقهم(٧٨) . والاصدقاء وهم نوعان : اصدقاء مخلصون ويجب عليه الاستكثار منهم ويكثر من تفقده لهم وان يبداهم بالبر ، ولا يؤاخذهم بالتقصير ولا يعاتبهم عتابا مفرطا ، واصدقاء في الظاهر فينبغي عليه ان يجاملهم ويحسن اليهم ولا يطلعهم على شيء من اسراره وعيوبه ويعاملهم بحسب الظاهر(٧٩) . ويجب عليه ان يختار من الاصدقاء من كان اهل علم وتدين وحكمة وعقل يفيدونه ومن كان اهل شرف يستعين بهم في حوادث الزمان ومن كان اهل ثروة يستعين بهم في الهم والغم(٨٠) . اما الاعداء فينبغي عليه ان يحترس كل الاحتراس منهم ويحذر من دسيستهم(٨١) . والمتوسطون منهم صلحاء نصحاء يجب ان يستمع الى قولهم ويجتهد في التشبه بهم ، ومنهم سفهاء منافقون ، اما السفهاء فيجب ان يستعمل معهم الحلم والمنافقون ان يقابلهم بمثل فعلهم والا يتواضع لهم لئلا يستضعفوه(٨٢) . واما سيرة الانسان مع من دونه ، فمن كان منهم ذا طباع جيدة فينبغي عليه ان لا يدخر وسعا في مساعدتهم ، واصحاب الطباع الرديئة فعليه ان يحملهم على تهذيب اخلاقهم(٨٣) .

ينهي ابن ابي الربيع الفصل الثالث بصفحتين كاملتين كتبها بجدول مشجر ووضع لها عنوانا يتوسط الصفحتين معا قائلا : ويجب على العامل بهذه السيرة العقلية مراعاة هذه الاحوال ، فيضع عشرين نصيحة بعشرين حالا او بعشرين فقرة كل نصيحة تاخذ سطرا كاملا ، ومغزاها بالحقيقة هو تكرار لما قاله بالصفحات السابقة من هذا الفصل فكانه بهذه العشرين نصيحة اراد ان يكتب خلاصة لما اطنب فيه فمثلا في الفقرة الاولى يقول : « ان يعلم انه حق على المرء ان ينظر الى محاسن الناس ومساويهم ليجتذب المنافع اليه » . وهذا طبعا كرره عدة مرات في صفحات الكتاب . والفقرة عشرون يقول : « ثم يتعهد المعيشة والحرفة التي يحترف بها ليتوفر كسبه وينمو ماله ويحسن حاله وينتظم » (٨٤) .

خص ابن ابي الربيع الفصل الرابع وهو الاخير في اقسام السياسات واحكامها وذكر السبب الموجب لاتخاذ المدن والداعي الى اقامة السياسة في العالم ، فيبدا الفصل متحها بكلماته الى الله عز وجل قائلا : « اللهم انا نحرص على بلوغ الغاية مع طول المشقة ... فاعصمنا من مكايد الشيطان ولا تكلنا الى النفس الامارة بالسوء وبلغنا الدرجة العليا برحمتك والسعادة القصوى بجودك ورافتك انك على ما تشاء قدير(٨٥) » ثم يذكر السبب الذي حداه على وضع هذا الفصل ، ان الله جل جلاله لما خص الملوك بكرامته ومكن لهم في بلاده وخولهم عباده اوجب علماءهم تبجيلهم وتعظيمهم وتوقيرهم كما اوجب عليهم طاعتهم،ويستشهد ابن ابي الربيع بالاية الكريمة « واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » كذلك يقول ان العامة وبعض الخاصة تجهل الاقسام التي تجب للملوكها عليها وان كانت متمكنة بجملة الطاعة

---

(٦٥) الرازي : رسائل فلسفية ص١٨ .
(٦٦) الرازي : رسائل فلسفية ص١٥ـ٩٦ .
(٦٧) الرازي : رسائل فلسفية ص٩٧ـ١١١ .
(٦٨) سلوك المالك ص٦١ . (٧٠) سلوك المالك ص٧٤ .
(٦٩) سلوك المالك ص٧٣ . (٧١) سلوك المالك ص٧١ .
(٧٢) « نلاحظ انه يقول : واما مع الاوضعين قليلا (فلينحط) الى رتبهم . وهذا بلا شك خطأ من الناسخ اذ الاصح مع سياق القصد : فلا ينحط ... »
(٧٣) سلوك المالك ص٧٧ .
(٧٤) سلوك المالك ص٧٨ـ٨١ .
(٧٥) سلوك المالك ص٨١ـ٨٣ .
(٧٦) سلوك المالك ص٨٤ـ٨٥ .
(٧٧) سلوك المالك ص٨٨ .
(٧٨) سلوك المالك ص٩٠ . (٨٢) سلوك المالك ص٩٤ .
(٧٩) سلوك المالك ص٩١ . (٨٣) سلوك المالك ص٩٥ .
(٨٠) سلوك المالك ص٩٢ . (٨٤) سلوك المالك ص٩٦ـ٩٧
(٨١) سلوك المالك ص٩٣ . (٨٥) سلوك المالك ص٩٨ .

كذلك يقرر صاحب الكتاب ان السعادة العامة في تبجيل الملوك وتعظيمها وطاعتها(٨٦) .

ندرك من الفقرة السابقة ان ابن ابي الربيع وضع هذا الفصل لاجل الملوك وكذلك اذا جاء ذكر العلماء والحكماء فلاجل ان يوقروا ويبجلوا الملوك واذا جاء ذكر العامة فلاجل طاعة الملوك لا غير ثم لا يتردد ان يستشهد بآيتين كريمتين ذكرنا واحدة منها تذكر ان الانسان بان الله تعالى رفع بعضنا فوق بعض درجات وكذلك كما نطيع الله والرسول يجب ان نطيع اولي‌الامر. ثم يقرر ابن ابي الربيع نظرية عجيبة هي ان السعادة العامة في تبجيل الملوك وطاعتهم . ولا ندري لماذا لم يقرر ـ مثلا ـ بان السعادة العامة هي في عدل الملوك بين رعيتهم . الحقيقة اننا لا نستطيع ان ننظر المسالة نظرة عصرية وانما الاصح ان نتذكر ان الخليفة العباسي كان يعتبر نفسه ظل الله في الارض ، فهو يجمع بين الرئاسة الدينية والدنيوية ، كما لا ننسى ان اي وزير او قائد في الدولة كان اذا اراد مكالمة الخليفة خاطبه ب : (ياابن عم رسول الله) ، ولا حاجة بنا ان نذكر ما لهذه الجملة من قدسية لدى المخاطبين والسامعين . ولهذا اذا لمنا ابن ابي الربيع من انه كان يجب عليه ان يدرس المجتمع مشيرا الى الاسباب التي تجلب له السعادة ، وجب علينا ان نتذكر ان المجتمع في ذلك الحين كان هرميا يبدا بالقمة الذي هو الخليفة حيث يستطيع هذا ان يقرب هذا ويبعد ذاك من العلماء ، وهو قادر على عزل او تعيين من يشاء من القادة والوزراء ، كما انه يستطيع ان يغني او يفقر او فرد من العامة . واود ان اذكر هنا ان الفارابي في كتابه (آراء اهل المدينة الفاضلة) قد اهتم برئيس المدينة اهتماما كبيرا وافرد لذكر خصال رئيس المدينة فصلا كاملا .

قبل ان انتهي من الاشارة الى الفقرة السابقة اود ان اذكر ان هناك سؤالا يطرح نفسه : لماذا يشير المؤلف الى ذكر الملوك ولا يقول الخلفاء ؟ لا سيما اذا علمنا ان المؤلف كتب كتابه في ظل الدولة العباسية . واذا كان هناك ملوك اطراف ، واذا كان هناك ملوك ولايات او مقاطعات ، الا ان الشيء الذي يجب الا يغيب عن بالنا ان ابن ابي الربيع ذكر انه كتب كتابه هذا من اجل (خليفة) سواء كان هذا الخليفة المستعصم ـ كما قررنا ـ او المعتصم . يخيل لي ان هناك اسبابا كثيرة لعل اهمها ان الدولة الاسلامية في بدء نشاتها كانت محاطة بدول يحكمها ملوك مثل بلاد فارس والحبشة ومصر وبلاد الروم ، بالاضافة الى ان العرب عرفوا الملوك في بلادهم ، فهناك ملوك اليمن وملوك كنده وملوك المناذرة وملوك الغساسنة ، والسبب الثاني ان كلمة (خليفة) اتخذت اول الامر للرجل الذي يخلف رسول الله ، فهي دينية اكثر منها ادارية ، وكذلك كلمة (امير المؤمنين) تدل على معنى الادارة والحكم . والسبب الثالث ان الدولة رغم انها كانت تدار من قبل الخليفة ـ في ايام عز الدولة العباسية ـ ورغم ان الخليفة ـ في عصور الضعف ـ قد فقد كل قوة سياسية ، اقول رغم هذا وذاك فقد كانت هناك مقاطعات وولايات تدار من قبل ملوك . والسبب الرابع ـ وهو مهم برايي ـ ان مفكري الاسلام قد اطلعوا على آداب وفلسفات الدول ذات الحضارة العريقة مثل فارس والهند واليونان حيث ان كلمة (ملك) عندهم تعني الحاكم والرئيس والمهيمن على شؤون البلاد ، ولهذا عندما نقرا لكتاب مسلمين نجد انهم يستعملون كلمة ملك ويقصدون به الحاكم او الخليفة او الرئيس ، فمثلا نقرا في كتاب (التاج في اخلاق الملوك) المنسوب للجاحظ والذي عاش في عز ايام الدولة العباسية يستعمل كلمة (ملك) وهو يقصد خليفة في كثير من صفحات كتابه . وكذلك الفارابي في كتابه (آراء اهل المدينة الفاضلة) فانه يستعمل كلمة : ملك ورئيس وامام وخليفة، ويقول انها كلها كلمات تدل على معنى واحد . ويحيى بن عدي في كتابه (تهذيب الاخلاق) يستعمل كثيرا كلمة ملك وسلطان ورئيس ويقصد بكل هذه الكلمات الرجل الحاكم للدولة .

ياتي ابن ابي الربيع(٨٧) بعد هذا على فكرة جديدة في كتابه فينصح بالتعاون بين الناس لان الانسان الواحد ـ برايه ـ لا يمكنه ان يعمل الصنائع كلها ولهذا افتقر بعض الناس الى بعضهم لا سيما وان الانسان محتاج الى الغذاء واللباس والمسكن والجماع والعلاج . ولهذا السبب اجتمع كثير منهم في موضع واحد فاتخذوا المدن لينالوا المنافع من قرب بعضهم لبعض . ويقول ابن ابي الربيع : ان الله عز وجل خلق الانسان بالطبع يميل الى الاجتماع .

والمعروف ان ارسطو(٨٨) اول من قال بان الانسان مدني بالطبع . وكذلك قال قبله افلاطون(٨٩) ان الانسان يحتاج للاجتماع والتعاون لان الانسان يحتاج للاخرين في بناء المدينة السعيدة . ومن فلاسفة الاخلاق في الاسلام الذين ذهبوا الى القول بان حياة الانسان تكتمل بالمجتمع يحيى بن عدي(٩٠) ومسكويه(٩١) . وبعد ان اجتمع الناس في المدن وتعاملوا يتاثر ابن ابي الربيع في العقيدة الاسلامية فيشير الى ان الله قد صنع لهم سننا وفرائض يرجعون اليها ويقفون عندها ، ونصب لهم حكاما يحفظون السنن ويلخذونهم باستعمالها لتنتظم امورهم ويجتمع شملهم(٩٢) .

فالمؤلف اذن يقرر ان السنن منزلة من عند الله تعالى ، وبلا شك هنا يقصد الشريعة الاسلامية . كما انه بنفس الوقت يقرر ان الله هو الذي نصب الحكام ، والسبب لقوله بهذا ـ كما اعتقد ـ انه كان يعيش في زمن خلفاء ينتسبون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي اختاره الله يوصل السنن الى البشر ، ولهذا يريد ابن ابي الربيع من الحكام ان يزيلوا الظلم والتعدي والفساد . ويلتفت ابن ابي الربيع لفتة بارعة حيث يقول ان المتولين لذلك يجب ان يكونوا افاضلهم من نهى عن شيء او امر بشيء فالواجب ان يظهر ذلك في نفسه اولا ثم في غيره(٩٣) . ثم ياتي بفكرة رائعة ايضا وهي ان المدينة او المدن الكثيرة يجب ان يكون رئيسها واحدا لان كثرة الرؤساء تفسد السياسة(٩٤) . بعد هذا يقول ان سائر الاعوان والسياسيين يجب ان يكونوا سامعين للرئيس مطيعين منفذين لما يصدر عن امره . ولم يكتف ابن ابي الربيع من الاعوان بالسمع والطاعة بل يقول : وحتى يكونوا كالاعضاء له يستعملهم كيف شاء(٩٥) ولا ادري في الحقيقة كيف انحدر ابن ابي الربيع الى هذا المستوى الفكري ، وهو الذي يستشهد بالآيات القرآنية الكريمة كيف نسي ان امرهم شورى بينهم .

ينتقل ابن ابي الربيع بعد هذا الى اركان المملكة وهي عنده

---

(٨٦) سلوك المالك ص٩٩ـ١٠٠ .

(٨٧) سلوك المالك ص١٠١ـ١٠٢ ، ص٧٥ .

(٨٨) Aristotle, Ethica Nicomachea, I.7 1097 b; IV.6. 1126 b.

(٨٩) Plato, The Republic, II. 369.

(٩٠) تهذيب الاخلاق ٩٦ ب . (٩٣) سلوك المالك ص١٠٣ .

(٩١) تهذيب الاخلاق ص١٥ . (٩٤) سلوك المالك ص١٠٣ـ٤ .

(٩٢) سلوك المالك ص١٠٢ . (٩٥) سلوك المالك ص١٠٤ .

اربعة اركان (٩٦) ، الملك والرعية والعدل والتدبير . ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان رئيس المدينة عنده الذي يصلح لرئاسة المدينة هو الملك الفاضل(٩٧) . فهو لم يطالب بالملك الفيلسوف كما ذهب فلاسفة من قبله ، فافلاطون(٩٨) مثلا اشترط ان يكون ملك المدينة فيلسوفا . وكذلك الفارابي(٩٩) من فلاسفة الاسلام. نلاحظ هنا ان ابن ابي الربيع يشابه يحيى بن عدي(١٠٠) الذي اكتفى بان يكون الملك فاضلا فحسب . والملك ـ كما يقول ـ مضطر الى ست آلات(١٠١) وهي الابوة والهمة الكبيرة والراي المتين والصبر على الشدائد والمال الجم والاعوان الصادقون . ولعل اغرب ما ذكره في هذه الفقرات الآلة الاولى ـ كما يسميها ـ وهي الابوة حيث قال في تفسيرها نصا : « وهو ان يكون من اهل بيت الملك قريب النسب ممن ملك قبله ، وذلك سبب الاتفاق عليه » فيظهر انه يريد ان يقرر اجماع الامة او مبايعة الامة الاسلامية ، ولكنه يرى انه يعيش تحت ظل دولة وراثية يتناوب الملك الاولاد او الاقارب وان التسمية تاتي اولا سواء من الملك او الخليفة السابق ، او عن طريق تدخل الحاشية والقواد ثم بعدها تؤخذ المبايعة من الاخرين ولهذا تزج بين القول بالوراثة والاتفاق . ويوجب ابن ابي الربيع الملك بان يسوس نفسه بذكر الله تعالى وشكره وان يجعل العدل نصب عينيه . وان يسوس بدنه بالاعتدال في اللذات وان يكون كامل الاعضاء لا ياتي قبيحا . وفي سياسة خاصته كالوزير والكاتب والعامل والطبيب ينبغي ان يضع عليهم العيون سرا وان يرفع من يثبت اخلاصه وان يقرب منه حكماء القوم وعقلائهم . وفي سياسة الرعية ينبغي عليه ان يستميل قلوبهم ويتلطف بهم وينفق عليهم ويطعمهم في الرفعة اليه وقرب المنزلة منه . وفي سياسة الحروب عليه ان يعلم حال عدوه وبنفس الوقت يخفي اخباره عن عدوه بالاضافة الى تقوية جيشه وحماية الثغور(١٠٢) . كما يحذر ابن ابي الربيع(١٠٣) الملك من خصال ذميمة كالحرص والعجب واتباع الهوى . ويجب على الملك كذلك ان لا يغضب ولا يبخل ولا يحقد ولا يحسد ولا يخاف . ثم لا يلبث ان ينصح الملك بالعفة والعدل والعفو وان يتبع طريق العدل والجود والحزم وان يبعد من بطانته الشره والحريص والذي لا دين له والشرير المتظاهر بالخير(١٠٤) .

اما الرعية(١٠٥) فمنهم الزهاد الذين انقطعوا للعبادة والحكماء الذين اتجهوا للعلوم كالطب والحساب والهندسة ، والعلماء وهم ـ برايه ـ خلفاء الانبياء وهم اصحاب التحليل والتفسير والتاويل ، وذوو الانساب من اهل الشرف والجاه وارباب الحروب الذين بهم يدفع الاعداء وبهم يفتح المدن ، وعمار الاسواق وهم الصناع ، وسكان القرى اهل الزرع والحرث والنسل . وهؤلاء بصورة عامة(١٠٦) ينقسمون الى ثلاثة اقسام : اخيار الفاضل وهم محبو الخير وحقهم الاكرام والتقدم او اشرار ارائل وهم كالسباع المؤذية ليس للتاديب فيهم نفع وحقهم اذا يئس من صلاحهم ولم تنفع العقوبة فيهم الابعاد لهم الى الاماكن النائية ببعد شرهم . والقسم الثالث المتوسطون وهم يميلون الى الصلاح مرة والى الفساد اخرى وحقهم استصلاح فسادهم ورد مائلهم وقطعهم عن العادات الرديئة باغفال مرة وعقوبة اخرى كتدبير الطبيب للعليل . ويجب على الملك تجاه الرعية(١٠٧) ان يشغلهم في صناعتهم حتى لا يجدوا فراغا للتدخل في امور السلطان ، واخذ ما للضعفاء من الاقوياء ويحرس من قطاع الطريق ومن اللصوص والاعداء . اما الرعية فيجب عليهم(١٠٨) ان يجتهدوا في تحسين العدل عند الملك وتزيينه وتقبيح الجور وتهجينه ، وان يظهروا سرورهم بسرور الملك ويشاركوه حزنه ، ويجيبوه اذا دعا في ليل او نهار ولا يخالفوا له امرا وليعتقدوا ذلك دينا .

في الفقرة السابقة بعض النقاط ارى من الجدير مناقشتها فهو قد ذكر مثلا الافاضل والارائل والوسط ، وهذه فكرة نوقشت في الصفحات السابقة . اما النقطة الاولى التي اود ان اشير اليها انه يامر بابعاد الاشرار الذين لا يرجى صلاحهم الى خارج المدينة ، وهذه العقوبة ربما تزيد من شرورهم فهو ابعادهم الى الاماكن النائية ولكن لم يحدد هذه الاماكن النائية ، هل هي القرى والارياف مثلا ؟ ام الى اقطار اخرى ؟ ام الى امكنة غير مسكونه ؟ انه لم يحدد وانما فقط يريد ان يبعدهم عن المكان الذي هو فيه ـ او الذي هم فيه ـ ليامن شرهم . اذ ربما اخذ هذه الفكرة عن الفارابي(١٠٩) الذي سبقه الى القول بان الذين لا يمكن ان تصلحهم النصيحة والعقوبة يجب ان يخرجوا من المدن . بينما نجد فلاسفة اخرين مثل يحيى بن عدي(١١٠) وافلاطون(١١١) يكتفون بالعقوبة . الفكرة الثانية انه يشبه الملك بالنسبة للرعية ـ لا سيما اولئك المتوسطون الذي يرجى صلاحهم ـ كالطبيب بالنسبة للعليل . لا شك ان الفكرة افلاطونية(١١ب) عالجها افلاطون في الكتاب الاول من الجمهورية، وذلك ان الطبيب غرضه ان يشفي العليل ، والحاكم ان يتوخى مصلحة المحكوم . وقد شبه فلاسفة ومفكرون مثل ارسطو(١١٢) وابن المقفع(١١٣) والفارابي(١١٤) ، الملك بالنسبة لشعبه كرب الدار بالنسبة لاهل داره . والغرض الذي يريده ابن ابي الربيع ـ كما يلوح لي ـ ان على الملك الا يكون مستبدا بابناء شعبه . النقطة الثالثة ان ابن ابي الربيع رغم انه يحث الرعية على تحسين العدل وتقبيح الجور واستهجانه عند الملك ، فهو هنا قد اعطاهم حق المشاركة او الاحتجاج ـ ان صح التعبير ـ بوجه ظلم الملك ، ثم لم يلبث ان يوصيهم الا يخالفوا للملك امرا ، بل يذهب ابعد من هذا ويقول : « وليعتقدوا ذلك دينا » وربما ان الذي حدا بابن ابي الربيع الى ذلك واقع الحال حيث ان الملك او الخليفة يامر فيطاع وان اوامره مقدسة اذ انه سليل الرسول وظل الله في الارض .

---

(٩٦) سلوك المالك ص١٠٥ . (٩٧) سلوك المالك ص١٠٤ .

(٩٨) Plato, The Republic, VI. 487.

(٩٩) آراء اهل المدينة الفاضلة ص١٠٨ ، تحصيل السعادة ، حيدرآباد ٣٤٥هـ ص٤٢ـ٤٣ .

(١٠٠) تهذيب الاخلاق ، انظر مثلا ٩٢ ا ، ٩٩ ب ، بالاضافة الى مثل هذه الآراء مبثوثة في الكتاب .

(١٠١) سلوك المالك ص١٠٥ . (١٠٢) سلوك المالك ص١٠٦ـ١٠٧

(١٠٣) سلوك المالك ص١٠٨ . (١٠٤) سلوك المالك ص١٠٩ـ١١١

(١٠٥) سلوك المالك ص١١٢ ، قارن ذلك مع الفارابي : الفصول المدني ص١٣٥ـ١٣٧ .

(١٠٦) سلوك المالك ص ١١٣ .

(١٠٧) سلوك المالك ص١٤ ا . (١٠٨) سلوك المالك ص١١٥ .

(١٠٩) الفصول المدني ص١١٢ . (١١٠) تهذيب الاخلاق ٥٢ أ .

(١١١) Plato, The Republic, II. 363.

(١١١ب) Plato, The Republic, I. 340—342.

(١١٢) Aristotle, Ethics Nicomachea. VIII. 10. 1161 a.

(١١٣) رسالة الصحابة (رسائل البلغاء) تحقيق محمدكردعلي ، القاهرة ، ١٩٤٦ ص ١١٩ .

(١١٤) تحصيل السعادة ص٣١ .

اما العدل فيعرفه ابن ابي الربيع(١١٥) انه حكم الله تعالى في ارضه . ويستدل المؤلف على شرف العدل اطباق الامم عليه مع اختلاف مذاهبهم ، فليس منهم الا من يوصي به ويعرف فضله. ومن اعمال العدل ـ برايه ـ « ان يقسم المرء كل شيء على حقه وفي موضعه » (١١٦) ، والا يخالف السنن الموضوعة له وان يكون صدوقا حفوظا للمواعيد رحيما بريئا من الدنس وان يجتمع فيه الوفاء والامانة . ومن الجدير بالاشارة ان تعريف يحيى بن عدي(١١٧) للعدل : « هو التقسط اللازم للاستواء ، وهو استعمال الامور في مواضعها » .

واما التدبير فيعني به ابن ابي الربيع(١١٩) ثمانية شروط لمن يريد ان ينشيء مدينة : الاول ان يسوق اليها الماء العذب حتى يسهل تناوله ، والثاني ان يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق ، والثالث ان يبني جامعا في وسطها حتى يكون قريبا من الجميع ، والرابع ان يقدر اسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم من قرب ، والخامس ان يميز قبائل ساكنيها بان لا يجمع اضداد مختلفة متباينة ، والسادس ان اراد سكناها فليسكن افسح اطرافها وان يجعل خواصه كفاله من سائر جهاته ، والسابع ان يحوطها بسور خوف الحتيال الاعداء لانها بجملتها دار واحدة ، والثامن ان ينقل اليها من اهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكانها حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج الى غيرها .

لعمري انها نصائح عالم مسلم خبير بشؤون تخطيط المدن سياسيا وحربيا واداريا واقتصاديا . وعظيم جدا من ابن ابي الربيع ـ بعد ان نصح بتخطيط مثل هذه المدينة ـ ان يتقدم من الملك او الرئيس الذي عمّر هذه المدينة ، فينصحه ان يسير في اهل هذه المدينة السيرة الحسنى ويأخذهم بالطريقة المثلى .

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى اركان الدولة او ما يخص الملك من الاتباع والانواع والدين لا يستغنى عنهم ويسميهم ابن ابي الربيع(١٢٠) : وزير عالم ، وكاتب عارف ، وحاجب عاقل ، وقاض ورع ، وحاكم عادل ، وعامل جلد ، ومال متوفر ورب شرطة ، وجند اقوياء ، وحكيم مجرب ، وجليس صالح ، وصاحب الطعام والشراب .

ويعطي ابن ابي الربيع(١٢١) اهمية كبيرة للوزير ـ برايه ـ هو الشريك في الملك ، المدبر فيه يحفظ اركانه ، المدبر بالقول والفعل . وانه لابد لمن تقاد الخلافة والملك من وزير منظم للامور ، ومعين على حوادث الدهور ، ويكشف له صواب التدبير . ويستدل على اهمية الوزير ان النبي محمد صلى الله عليه وسلم رغم ما خصه الله تعالى به من الاكرام ، اتخذ علي بن ابي طالب كرم الله وجهه وزيرا ، حيث قال له انت مني بمنزلة هرون من موسى . وان الله تعالى قال ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هرون وزيرا ، فلو استغنى احد عن المؤازرة والمعاضدة، لاستغنى نبينا محمد وموسى صلوات الله عليهما . ومن صفات الوزير ان يكون عالما بالامور حسن العقل شديد الحلم حلو اللسان حميد الاخلاق قليل اللهو بطيء الغضب كتوم السر صحيح الجسم جيد الفكر(١٢٢) . ومما يجب للوزير على الملك ان يقربه الملك ويدنيه ، والا يتشاور مع احد دونه ، والا يقدم احدا عليه ، وان يستمع الى نصائحه ، والا يكاتمه شيئا مما يستعان به عليه ، والا ينشط احدا للسعاية به ، وان يتعهده بانعامه واكرامه ، وليظهر صواب تدبيره وينشرح صدره لما يريد تدبيره . اما ما يجب على الوزير تجاه الملك ، فيجب ان يكون خبيرا بادب التدبير والسنن والفرائض والاحكام ، وان يكون ذا نصح وامانة وصدق للملك ، وان يدمن النظر في سير الملوك ، وان يجعل نهاره للنظر في امور العامة وليله للنظر في امور الخاصة وان يوكل بنفسه من يرفع اخباره اليه فيمضي فيما وافق الصواب ويتلافى ما يمكن تلافيه ، وان يكثر عيونه ليتعرف على احوال الرعية ، وان يحسن اختيار من يستعمله في اعمال الملك(١٢٤) .

والكاتب هو لسان الملك عند الخاص والعام ، والكتاب اربعة : كاتب حضرة ويجب ان يكون ذكيا فطنا جيد العبارة عالما بالنحو والبلاغة عذب الكلام وان يعرف مراتب الملوك والكاتبين فيعطي كلا منهم حقه . وكاتب الجيش يكون خبيرا في السلاح عارفا بلغات جنده(*) وان يجرى على جنده الجرايات كل

---

(١١٥) سلوك المالك ص١١٦ (١١٨) سلوك المالك ص١١٨ـ١١٩ .
(١١٦) سلوك المالك ص١١٧ (١١٩) سلوك المالك ص١٢٠ـ١٢١
(١١٧) تهذيب الاخلاق ٦٧ أ (١٢٠) سلوك المالك ص١٢٢ .
(١٢١) سلوك المالك ص١٢٢ـ١٢٣ .
(١٢٢) سلوك المالك ص١٢٣ .
« يذكر ابن ابي الربيع من بداية صفحة ١٢٤ الى منتصف صفحة ١٢٥ من الكتاب محاسن وفضائل (القائم بتشييد ما ذكرنا والمتولي لتدبير ما قدمنا) ويقول ان ذلك من جميل العناية باهل عصره . واعتقده يقصد الوزير لانه يتكلم حوله في الصفحات السابقة واللاحقة الا ان المؤسف انه لم يذكر اسم هذا (القائم والمتولي) .
(١٢٣) سلوك المالك ص١٣٥ .
(١٢٤) سلوك المالك ص١٢٦ .
« وددت ان الاحظ فيما اذا كان هناك تشابها فيما ذهب اليه ابن ابي الربيع في سلوك الوزير وواجباته تجاه الملك وفيما اذا كان يحيى بن عدي قد ذكر في كتاب تهذيب الاخلاق مثل هذا الكلام ، غير انني وجدت ان يحيى لم يستعمل كلمة وزير قط الا انه استعمل كلمات تدل على بطانة الملك مثل (خواص الملك وثقاته واصحابه وحاشيته) وهي مبثوثة في صفحات الكتاب . انظر مثلا ص١٠١ب ـ ١٠٢ أ . غير انني لاحظت في كتابين لابي الحسن الماوردي ، (المتوفى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) عندما يتحدث عن الوزير وشترط الصفات التي يجب ان يتميز بها الوزير ، تشابه الى حد كبير ما ذهب اليه ابن ابي الربيع ، رغم صعوبة الحكم ان احدهما اخذ عن الآخر . فالماوردي في كتابه (الاحكام السلطانية ، طبعة القاهرة ، المطبعة المحمودية التجارية ـ بدون تاريخ) وفي الباب الثاني من الكتاب في باب تقلد الوزارة (ص ٢٠ـ٢٧) يشترط في الوزير ان يكون حكيما حليما فقيها متواضعا مستقيما . ويذهب الماوردي في كتابه (ادب الوزير ، طبعة القاهرة ١٩٢٩م) (ص٢ـ٩) بتقديم النصائح للوزير باعتباره شخص مباشر لتدبير ملك ، ولهذا ينصحه بالصلاح والعدل والاحسان والحلم واتباع العقل وعدم الغضب . كذلك ينصحه في (ص٣٨ـ٤٣) ان يمد الملك برايه ومشورته ، وان يكون له عينا فيوضح له حقائق الامور فلا يمايل قريبا ولا يتحيف بعيدا وان يحرص على راحة الملك اذا نطق وعينه اذا رمق ، بالاضافة الى الآراء المشابهة في عرض الكتاب » .
(١٢٥) سلوك المالك ص١٢٦ـ١٢٨ .
(*) « مما يدل على ان الجيش الاسلامي كان يتكون من عدة قوميات يتكلمون لغات مختلفة » .

شهر وان يخبر الوزير ما يحتاج اليه من النفقات والجرايات ، وينبغي ان يكون له دربة بترتيب العساكر ليقدم من يجب تقديمه . وكاتب الاحكام يجب ان يكون عارفا بعلوم الشريعة وحدودها ، عارفا احكام الدعاوى والبينات ، وان يعرف مايجب فيه الجلد والقطع والقتل ، وان يكون بصيرا بالشهود وطبقاتهم وشهاداتهم . وكاتب الخراج ينبغي ان يكون خبيرا بحفر الانهار ومجاري المياه ، وان يكون عارفا بالمساحات وتخمين الغلات ، عالما بفصول السنة ، بصيرا بالحساب ، وله خبرة باوقات الزرع ومقدار محصوله ، وان يكون خبيرا عالما بحقوق بيت المال وما يجب له .

انه باختصار اذا اردنا ان نشبه الكتّاب في زمن ابن ابي الربيع ، نستطيع القول ان كاتب الحضرة اشبه بالمستشار الثقافي ، وكاتب الجيش اشبه ما يكون برئيس اركان الجيش ، وكاتب الاحكام اشبه بحاكم قدير له خبرة وممارسة طويلة في المحاكم . وكاتب الخراج يجمع في المعرفة بين خبير زراعي واقتصادي ومالي في زماننا هذا .

والحاجب(١٢٦) هو الواسطة بين الملك وبين من يريد لقاءه، ليرتب الناس بين يدي الملك كما يليق بمجلسه . فهو اقرب ما يكون برئيس تشريفات في وقتنا الحاضر ، ومن صفاته ـ بحسب راي ابن ابي الربيع ـ ان يكون فهما ذا خلق واسع ومنطق بارع ، مهيب الطلعة ، ذا عقل وحكمة ، ولا يكون مكفهرا ولا سهلا ، يعرف مراتب الداخلين على الملك فينزلهم منازلهم ، وعليه ان يعرف سير الملوك وقواعدهم وخاصة الملك وعامته ، ويعرف الاوقات التي يجلس فيها الملك والاوقات التي يكون في خلوته ، وان يراعي خواص الملك ويكرمهم ويعرف مواضعهم ، ولا يفسح لاحد منهم في الدخول على الملك الا باذنه ولو كان ولدا .

والقاضي(١٢٧) هو ميزان الملك من رعيته وصفته ان يكون ذا وقار وورع ، ذكيا فطنا عالما عاقلا عارفا بادب القضاء ، وان لا يعجل الحكم قبل ثبوته ، وان يكون فقيها عفيفا ، ممارسا للامور ، صادعا بالحق ، لا يقبل هدية ، يعامل الخصمين بالسواء ، قليل التبسم طويل الصمت شديد الاحتمال ، وان يبالغ في التفتيش على الشهود والوكلاء ويعرف احوالهم .

وصاحب الشرطة(١٢٨) ينبغي ان يكون حليما مهيبا ، غليظا مع اهل الريب ، ظاهر النزاهة ، غير عجول ، يهتم بحراسة وامن المدينة وتفقد سورها وابوابها ، يقيم الحدود كما وردت في الكتاب العزيز ، وعليه ان يمنع المظلوم من الانتصار لنفسه بيده ، وينبغي ان تكون عقوبته الخاص والعام واحدة كما امرت الشريعة .

اما الجند وحملة السلاح(١٢٩) فبهم تدفع الاعداء وتؤخذ المدن ، ولذا يجب ان يكون الجند ذوي باس ولا يقبل من كان معتادا للرفة والراحة والتنعم ، وليكن قوادهم ابرهم قدرا واعرفهم بالوقائع والحروب ومن العارفين بمكايد الحروب ، وليؤمر رؤوسهم وقوادهم بعرضهم في كل شهر مرة ، وان يجعل على كل عشرة قائد وعلى كل عشرة من القواد رئيسا حتى ينتهي الى رب الجيش .

والعامل(١٣٠) هو جامع الاموال ، ولذا يجب ان يكون عالما بامور السواد ، ناصحا في جميع الاحوال ، عاملا بالعدل ، وان يكون فيه انصاف وانتصاف ونزاهة ، وليكن قصده ادرار اموال الرعية وتوفير مال السلطان ، لان المال قوة وعليه الاعتماد في رخاء الرعية وسد الثغور وصد الاعداء .

والحكيم(١٣١) ـ ويقصد به الطبيب ـ يجب ان يكون عالما بمجرى علم الطب ، كثير الدرس في الكتب ، حاذقا لطيفا رفيقا ، كثير العلاج والتجارب مامون السيرة ، عارفا بالعقاقير والادوية والاغذية .

اما الجليس(١٣٢) فالملل يحتاجه كحاجته الى الوزير والحاكم ، فينبغي ان يكون عاقلا دينا حرا عفيفا ، حسن الاخلاق ، نقي الثوب ، ذا معرفة بالنحو واللغة والبلاغة والفصاحة ، حافظا لصواب الشعر ومجونه ونوادره ، وان يكون كتوما للاسرار ، بعيدا من النميمة ، حسن المحضر للناس ، وان يكون خبيرا بخصائص الملوك وعاداتهم .

وصاحب الطعام والشراب(١٣٣) يجب ان يكون ثقة مؤتمنا، يتلطف في منع الملك عن بعض المطاعم التي لا توافقه ويعرفه وجه المصلحة في تركها ، والا يكون بخيلا ولا مضيعا ؛ وليتفقد الطعام والشراب في كل ساعة ، وان يكون عارفا بما يجلب من البلاد من المطاعم والمشارب ، ويجب ان يكون عالما بما يهوى الملك من الاطعمة والاشربة فيبالغ في اتخاذه وتجويده .

اشرف ابن ابي الربيع على الصفحات الاخيرة من الكتاب ، ولهذا فهو يريد ان يزينه بالاوايل القدماء واهل الفضل ، ويقول ان النوادر والوصايا والحكايات والامثال لها فوائد جليلة ولهذا نريد ان نجعلها خاتمة الكتاب(١٣٤) . ثم يذكر ان احد ملوك الفرس سال حكيما : ما الذي يحيي الفتن وما الذي يميتها ؟ فكتب اليه الحكيم : بعض الحكم التي تحيي الفتن منها : غفلة ملتذ وبقلة محروم . وبعض الحكم التي تميت الفتن منها : درك بغية وموت امل وتمكن رعب وهيبة في قلوب الاعداء . ثم يرجع المؤلف في الصفحات التالية(١٣٥) ليذكر ان الناس مختلو الطباع في آرائهم وعاداتهم وشهواتهم ، فمنهم يؤثرون اللذات الحسية كالطعام والشراب ، ومنهم يؤثرون السماع ، ومنهم يؤثرون المال والجاه ، ومنهم يؤثرون الآداب والعلوم .

يدرج ابن ابي الربيع(١٣٦) ستة عشر نصيحة لمن يريد ان يصلح اخلاقه ولمن يجب الوصول للكمال ، وذلك بان يكون متفقدا لجميع اخلاقه محترزا من دخول اي نقص عليه ، وان يكون ابدا عاشقا لصورة الكمال والا يقف في العلم عند حد ، وان ياتمر باوامر الله ورسوله ، وان يعتدل في كل شيء ويجتنب الاسراف وان تكون قوة العقل دائما مسيطرة على قوتيه الغضبية والشهوانية ، وان يبتعد عن السفهاء الى غيرها من النصائح التي كررها فيما سبق من الصفحات .

الشيء الذي لاحظته من النصائح السابقة ان بعضها لها ما يشابهها في كتاب (تهذيب الاخلاق) ليحيى بن عدي :

ابن ابي الربيع(١٣٧) :

ان يكون متفقدا لجميع اخلاقه متيقظا لسائر احواله منتقصا لمذموم العادات وان يحترز من دخول النقص عليه وليجتهد في بلوغه غاية الكمال وان يكون ابدا عاشقا لصورة الكمال مستلذا محاسن الاخلاق محمودها وان يعتني تهذيب

(١٢٦) سلوك المالك ص١٢٩ . (١٢٨) سلوك المالك ص١٣١ .
(١٢٧) سلوك المالك ص١٣٠ . (١٢٩) سلوك المالك ص١٣٢ .
(١٣٠) سلوك المالك ص١٣٣ .

(١٣١) سلوك المالك ص١٣٤ . (١٣٢) سلوك المالك ص١٣٥ .
(١٣٣) سلوك المالك ص١٣٦ . (١٣٤) سلوك المالك ص١٣٧ .
(١٣٥) سلوك المالك ص١٣٧ـ١٤١ (١٣٦) سلوك المالك ص١٤٣
(١٣٧) سلوك المالك ص١٤٣ .

نفسه فلا يستكثر ما يقتنيه من الفضائل والعلوم النافعة وان يكون مستصغرا للرتبة العليا طالبا غايتها بجهده جاعلا غرضه الاحاطة بها وان لا يقف عند غاية من العلم الا ويومي بطرفه الى ما فوقها ليزداد بصيرة ... وان يسدد طرفا من علم اللسان ويعتني بالبلاغة والفصاحة والكتابة والدرس وان يجمل لشهواته قانونا راتبا يقصد فيه الاعتـــدال ويجتنب الاسراف .

يحيى بن عدي(١٣٨) :

فاما تفصيل اوصاف الانسان التام فهو ان يكـون متفقدا لجميع اخلاقه متيقظا لجميع معائبه متحرزا من دخول نقص عليه مستعملا كل فضيلة مجتهدا في بلوغ الغاية عاشقا لصورة الكمال مستلذا لمحاسن الاخلاق ... معتنيا بتهذيب نفســه غـير مســتكثر لما يقتنيه من الفضائل مستعظما لليسير من الرذائل مستصغرا للرتبة العليـــا مستحقرا للغاية القصوى يرى التمام دون محله والكمال اقل اوصافه ... ولا يقف عند غاية من علمه الا ورنا بطرفه الى ما فوق تلك الغاية ... ويشدو ايضا طرفا من ادب اللسان والبلاغة ويتحلى بشيء من الفصاحة والخطابة ... وان يجعل لشهواته قانونا راتبا يقصد فيه الاعتدال ويتجنب السرف والافراط .

ثم يذكر ابن ابي الربيع بعض الحكم والامثلة على لسان الحكماء والعلماء والملوك . فمثلا يذكر وصايا لحكيم منها ينصح : « لا تحقر عدوك(١٣٩) » ثم يفسرها ابن ابي الربيع ان معناها : لا تستصغر اليسير من الهوى . او ان بعض العلماء يذكر ان الكذب قبيح من الحكماء والبخل قبيح من الاغنياء . او ان بعض الملوك ينصح وزيره : لا تحمل على بدنك ما لا تطيق (١٤٠) . ثم يكتب جدولا في صفحتين(١٤١) يذكر فيه عشرين وصية لعلماء وحكماء لم يذكر اسماءهم ثم ان الوصايا اخلاقية لا تفوت اي مفكر اخلاقي من ذكرها عندما يريد ان يكتب كتابا او مقالا فمثلا الوصية الاولى قال حكيم : « لا يجب ان تحث غيرك على فضيلة ما لم تكن كاملة فيك فان فعلك يخبر عن قبول كلامك » . وهكذا باقي الوصايا والنصائح .

وهكذا ينصح في باقي الصفحات(١٤٢) بالتحرز من الآفات فمثلا يذكر ان ارسطو اوصى الاسكندر عدة عدة وصايا منها : اذا بلغت غاية الامل فاذكر الموت . ووصايا الملك بهمن لولده مثل : لا تهتم بالدنيا فانه لا يكون الا ما قدر الله .

ثم يختتم الكتاب بانه قد وفى بما لخص وشجر وبما ذكر من حكم العلماء ويتمنى انه كان نافعا ويسال من الكريم بسط عذره فيما قصر فيـــه .

---

(١٣٨) تهذيب الاخلاق ٨٩ب-٩٠ب .
« التقاط بين الجمل تعني وجود جمل اخرى لا تشابه بينهـــا » .
(١٣٩) سلوك المالك ص١٤٤ . (١٤١) سلوك المالك ص١٤٦-١٤٧
(١٤٠) سلوك المالك ص١٤٥ . (١٤٢) سلوك المالك ص١٤٨-١٥٠

المصادر العربية (حسب ورودها في المقالة) :

١ ـ ابن ابي الربيع : ســـلوك المالك في تدبـــير الممالك ، القـاهرة ١٢٨٦هـ .
٢ ـ حاجي خليفة : كشف الظنون ، طبعة القاهرة ١٢٧٤هـ . كشف الظنون ، طبعة استانبول ١٩٤٣ م .
٣ ـ جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية ، القاهرة ١٩١١م .
٤ ـ الزركلي : الاعلام ، القاهرة .
٥ ـ عمر كحالة : معجم المؤلفين ، دمشق ١٩٥٧-١٩٦١م .
٦ ـ الكندي : رسائل الكندي الفلسفية ، تحقيق ابو ريدة ، القاهرة ، مطبعة الاعتماد .
٧ ـ ابن عربي : فصوص الحكم ، القاهرة ١٩٤٦م .
٨ ـ الفارابي : آراء اهل المدينة الفاضلة ، تحقيق البيرنصري نادر ، بيروت ١٩٥٩م .
٩ ـ الفارابي : رسالة في السياسة ، تحقيق لويس شيخو ، بيروت ١٩١١م .
١٠ـ ابن سينا : كتاب في السياسة ، تحقيق لويس معلوف ، بيروت ١٩١١م .
١١ـ ابن حزم : فلسفة الاخلاق ، القاهرة ـ بدون تاريخ ـ .
١٢ـ الغزالي : احياء علوم الدين : القاهرة ١٢٨٢هـ .
١٣ـ مسكويه : تهذيب الاخلاق ، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٦٦ .
١٤ـ جالينوس : كتاب الاخلاق ، تحقيق بول كراوس ، مجلة كلية الاداب ، القاهرة ١٩٣٧ .
١٥ـ ابو بكر الرازي : رسائل فلسفية ، تحقيق بول كراوس ، القاهرة ١٩٣٩م .
١٦ـ الفارابي : تحصيل السعادة ، حيدرآباد الدكن ١٩٤٥هـ .
١٧ـ ابن المقفع : رسالة الصحابة ، تحقيق محمد كرد علي (رسائل البلغاء) القاهرة ١٩٤٦م .
١٨ـ الماوردي : الاحكام السلطانية ، القاهـرة ، المطبعة المحمودية التجارية .
١٩ـ الماوردي : ادب الوزير ، القاهرة ١٩٢٩م .

المصادر الاجنبية :

(1) Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literatur (2nd. ed. and Supplements), Leiden, 1937—1949.
(2) H.K. Sherwani, Islamic Culture, Hyderabad Deccan, 1941 April.
(3) Al-Farabi, The Fusul al-Madani, edited by D.M. Dunlop, Cambridge 1961.
(4) N.A. Al-Tikriti, Yahya Ibn Adi, A critical edition and study of his Tahdhib al-Akhlak, Ph. D. Thesis, Cambridge, 1970.
(5) Plato, Phedo, (English Translation) by M. Jowett, New York, 1937.
(6) Plato, Temaeus (English Translation) by H. Lee, Penguin, 1965.
(7) Plato, Ten Republic, (English Translation) by B. Gowett, Oxford, 1888.
(8) Nasir al-Din Tusi, The Nasiran Ethics, (English Translation), by G.M. Wickens, London, 1964.
(9) Jalal Al-Dawwani, Akhlaq, -i- Julaly, (English Translation,) by W.F. Thomson, London, 1839.
(10) Aristotle, Ethica Micomachea, (English Translation), by D. Ross, Oxford, 1925.
(11) Aristotle, De Anima, (English Translation) by G. Smith, Oxford, 1931.